

بغداد في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)

المشرق الفرنسي ماريوس كنار

ترجمة الدكتور

أكرم فاضل

مديرية الفنون والثقافة الشعبية - وزارة الاعلام
بغداد

لدوام حياتها وازدهارها . ولن نثبث طويلا عند تدهور الخلافة العباسية التي تابعت انحدارها الذي استعصى علاجه تحت حكم المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢) مع حكومة كانت في الواقع حكومة نساء وخصيان لا يملك حبالها وزير من وزن علي بن عيسى أو زعيم عسكري مثل مؤنس حولا ولا طولا . لقد عرف هذا الحكم الطويل ازمتين كادتتا تقذفان بالخليفة من على عرشه . الازمة الاولى كانت اثناء الثورة الفاشلة ، لدى تسم المقتدر زمام الحكم ومغامرة ابن المعتز ، الشاعر المثقف الذائع الصيت ، خليفة اليوم الواحد ، ذلك اليوم الذي كلفه حياته . والازمة الثانية كانت عام ٩٢٩/٣١٧ ، حين وضعت ثورة اخرى اخا الخليفة على العرش والنتيجة بعد عدة ايام بعودة الخليفة الى عرشه . ولكن المقتدر كان طوال حكمه العوبة بأيدي افراد حاشيته وبطانته الذين ساندتهم امه شغب . وقد سقط هذا الخليفة قتيلًا وهو يصارع بشخصه صراع المستميت انتفاضة عسكرية . اما خلفه وهو اخوه القاهر ، بطل مجازفة عام ٣١٧ الهجري ، فقد خلع وسمت عيناه عام ٩٣٤/٣٢٢ اثر وثبة سياسية عسكرية اقمعت أعوام (٣٢٢ - ٣٢٩ / ٩٣٤ - ٩٤٠) على العرش أحد أبناء المقتدر وهو الراضي . وفي عهد هذا الخليفة كمل انحطاط الخلافة ، وقام النظام الذي سلم مقاليد السلطان كلها بيد امير الامراء الذي أزرى بالخليفة فلم يعد يعتبره عاهلا الا بالاسم ، واحتفظ الخليفة لنفسه بالمنزلة التي يخوله اياها لقب خليفة الرسول ، عترة النبي ، والسلطة الظاهرية بالتقليد الذي يخلقه الخليفة على رؤساء الامارات اللذين يعترفون

ان القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر كذلك (لان بحثنا لابد له أن يتجاوز القرن العاشر) هما لبغداد فترة قلائل سياسية ودينية واجتماعية انزلت بمجموعها ضربة خطيرة على يافوخ رفاه المدينة ومنزلتها في العالم الاسلامي . وفي خلال هذه الحقبة ذاتها أصبحت عاصمة الامبراطورية الاسلامية عاصمة دولة تقتصر في معظم الاحوال على سواد العراق ، ولو لم تكن بغداد رمزا للخلافة ، الخلافة التي ظلت تحيطها بهالتها المتلاثة ، تقول لولا ذلك ولولا انها ديمومة للتشكيلات الادارية للماضي رغم تهافتها ، ولولا بقاء مجتمع ارسقراطي وبرجوازي وارثا امجاد العهد السالف ، ولولا النشاط الثقافي الذي ظل يشيع اضواءه ، لولا كل هذه لما بقيت لبغداد أهمية تفوق أهمية عواصم الدول الثانوية التي نشأت نتيجة لتفكك الامبراطورية العباسية . وفي نهاية القرن العاشر ظهرت عاصمة اسلامية كبرى ثانية طفتت تمحق مجد بغداد التي لم يبق الا اسمها دليلا على عظمة مدينة القرن المنصرم .

وها اننا نأخذ على عاتقنا بحث الحياة السياسية والحياة الدينية والحياة الاجتماعية والاقتصادية لبغداد في ذلك الاوان ورسم المراحل الرئيسية له .

الحياة السياسية :

اجتازت بغداد في هذه الفترة سلسلة من الازمات السياسية الخطيرة التي لم تقع دون أن تؤثر في جو طمأنينة بغداد وسلامها ، هذين العنصرين اللذين تحتاج اليهما كل مدينة عظمى

بسلطته الروحية ، كما يعترف بها أمير الامراء بسبب التقليد نفسه ، ومن ذلك التاريخ اتصلت حلقات الازمات وتفاقت شروورها ، سواء اثناء تعيين احد امراء الامراء او خلال تنصيب الخليفة نفسه .

وقد نشب صراع لا رحمة فيه على نيل لقب أمير الامراء واحتكار السلطة الفعلية . فكان المتزاحمون هم القادة العسكريون وكان معظمهم من أصل غير عربي ، وينضوي تحت لوائهم المرتزة الاتراك والديلم ، وهناك القوات الانظامية ، وثمة حرس الخليفة وقادته . رؤساء كل هذه القوى كانوا يتطاحنون للاستئثار بالسلطة .

وقد خلف ابن رائق (٣٢٤ - ٣٢٦) (وهو الحائز الرسمي الاول على لقب أمير الامراء ، وكان سابقا واليا على واسط والبصرة) مرؤوسه القديم بجكم (٣٢٦ - ٣٢٩ / ٩٣٨ - ٩٤١) . وبعد موت بجكم ، وغب مرور فاصل زمني مارس فيه البريدي والي البصرة السلطة خلال شهر في بغداد ، فثار كورنكيج الفاراضي الديلمي عام (٣٢٩ - ٩٤١) بهذا المنصب ، ولكنه سرعان ما تنازل عن منصبه لابن رائق الذي عاد في ايلول من العام نفسه . واذ اضطر ابن رائق الى الفرار امام عودة البريدي وكان قد جلب معه الخليفة المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣ / ٩٤٠ - ٩٤٤) لم يسلم بهذا الفرار فقد قتل في نيسان ٩٤٢ بأمر من أمير الموصل الحمداني . والامير الحمداني باعاده الخليفة الى عاصمة ملكه اصبغ أمير الامراء في السنة نفسها مع لقب ناصر الدولة . غير انه طرد عام ٩٤٣ من قبل الامير التركي توزون ، الشائر عليه ، الذي امسى أمير الامراء . ولكن وفاة توزون عام ٣٣٤ آب ٩٤٥ ، ترك السلطة مفتوحة امام ناصر الدولة الذي كان يحلم بالاستحواذ على السلطة في بغداد ، وكان أمير الامراء الجديد ابن شيراز الذي اختارته القوات المسلحة يرى في وقت من الاوقات الانحباب من الميدان . ولكن أحمد بن بويه الديلمي (وكان قد خدم مرداويج ، السيد الجديد لفارس الشمالية الغربية ، مستوليا على خوزستان ، وقد سبقت له محاولة النفوذ الى العراق) ها هو يحتل بغداد عام ٣٣٤ / ٩٤٦ ويفقد فيها أمير الامراء مع لقب معز الدولة ، وباحتلاله هذا تالق في بغداد نجم اسرة سميت بالاسرة البويهية ، كان من افرادها امراء الامراء ، وقد تطور نفوذهم اكثر فاكثر باتجاه سلطة (السلطان) بالرغم من ان الامراء البويهيين لم يتسموا بهذا اللقب ، ولو انهم قد تبنا بعد ذلك لقب مالك الدولة بل الشاهنشاه .

خلف معز الدولة ابنه بختيار دون حدوث ازمة سياسية (٣٥٦ - ٣٦٧ / ٩٧٨) . ولكن تدابيره السياسية الخرقاء جعلت رئيس الاسرة البويهية ، وكان آنذاك عضد الدولة سيد فارس ، يطوح ببختيار ويضم الى ممتلكاته العراق وبغداد عام ٣٦٧ / ٩٧٨ . وعند موت عضد الدولة عام ٣٧٢ / ٩٨٣ نبعث من جديد ازمات الوراثة وشن اولاد عضد الدولة الحرب على بعضهم . وتسلم احدهم ، بهاء الدولة ، ازمة الحكم في بغداد عام ٣٧٩ / ٩٨٩ وظل يحكم حتى عام ٤٠٣ / ١٠١٢ . وبهاء الدولة بدا افول طالع الاسرة البويهية .

وبالرغم من ان الخلفاء لم تعد لهم طاقة ولا قوة فان توارث الخلافة لم يحدث دون وقوع اصطدامات . فالخليفة المتقي بن المقتدر الذي اجله الامير بجكم على العرش عقب وفاة الراضي عام ٣٢٩ / كانون الاول ٩٤٠ ، خلع عن العرش وسلمت عيناه بأمر أمير الامراء توزون عام ٣٣٣ / ٩٤٤ . واستخلف توزون على العرش المستكفي الذي سلمت عيناه ونحي عن العرش عام ٣٣٤ / ٩٤٦ بأمر معز الدولة . واجلس محله على العرش المطيع ، العدو الشخصي للمستكفي . ولكنه ارغم عام ٣٦٣ / ٩٧٤ على التخلي عن العرش لولده الطائع بأمر الحاجب التركي سبكتكين . وقلب بهاء الدولة الطائع عن العرش عام ٣٨١ / ٩٩١ . في سبيل الاستيلاء على ممتلكاته . وحكم خلفه القادر حتى عام ٤٢٢ / ١٠٣١ ، ورأى ابنه القائم نهاية الاسرة البويهية ومجيء السلاجقة . كانت هذه التبدلات العديدة مصحوبة في اغلب الاحيان باضطرابات مدنية او عسكرية واعتقالات ومداهمات كبس وتعقبات وقد ترافقها حوادث قتل . وبعد اخفاق القاهرة عام ٣١٧ / ٩٢٩ لم يحدث اعدام نظرا لاعتدال المقتدر . وكانت الممارك التي تدور بين الطامحين الى امرة الامراء دامية : كانت تحرق دار الامير السابق بعد هزيمة صاحبه العسكرية وتنهب (كما حدث لدار بجكم على ايدي رجال ابن رائق حينما ظهر مجددا في بغداد) . وعانت المدينة نفسها الاميرين من ويلات شرور المفاكر . وكان الاهالي ينتقمون بقوة احيانا . وعلى هذا المنوال ذبح ديلم الامير كورنكيج عام ٣٢٩ . ولم تجلب الحرب الاهلية معها الا افساد الحياة الاقتصادية كما سئرى .

وفي ايام حكم المقتدر كانت ترافق تبدلات الوزراء أعمال انتقامية تنصب على رأس الوزير الساقط : كان يسجن ويقدم للمحاكمة ويحكم عليه بغرامة فادحة وكان يعذب احيانا بل يحكم عليه

بالموت ، كما وقع لابن الفرات . وكان الشعب نفسه يشاطر في الاجراءات الانتقامية ضد الوزير فينهب داره .

ونحن لا نحصى اقل من سبعة وعشرين تبديلا من تبدلات الوزراء في عهود حكومات المقتدر والقاهر والراضي ، فان وزراء امراء الامراء او بالاحرى كتابهم الذين كانوا في الواقع وزراء حقيقيين ووزير الخليفة الذي لم يعد له من الحكم شيء رغم استمراره في البقاء ، نقول كان هؤلاء الوزراء جميعا لا يتفكرون عن التبدل ، وفي عهد معز الدولة كان ثمة شيء من الاستقرار : لم يكن لديه الا وزيران ، المهلبى حتى عام ٣٥٢ / ٩٦٣ ، وبعد ذلك الشيرازي وابن الفسجاس في آن واحد . وقضية المهلبى قضية غريبة : اذ جلده الامير بالعصي ولكن رغم ذلك استبقاه وزيرا . كان في بعض عهود خلفاء معز الدولة ، ولاسيما بهاء الدولة ، شلال حقيقي من الوزراء . نستخلص من هذا ان طابع الحياة السياسية في تلك الحقبة كان عدم الاستقرار الذي يفسر جزئيا القلاقل التي شملت المدينة . وفي الفترة التي تعيننا تركزت الحياة السياسية والحياة الادارية في مدينة الجانب الايسر من دجلة حول قصور الخلفاء والوزراء وامراء الامراء . وتؤلف منظومة دور الخلفاء مدينة حقيقية بحرمها الخاص وكانت تسمى دار الخلافة الواقعة على دجلة قرب ساقلة حي المحزم وحي (سوق الثلاثاء) . وكانت تتألف من ثلاثة قصور رئيسية ، الخزانة ، التاج ، الفردوس ، الواقع بعضها على مقربة من بعض ، وفي الحدائق التي توجد فيها سرادقات او قصور ثانوية يصعب علينا تعيين مواقعها ، كدار الترجمة او دار الشجرة . اما قصر الخزانة فمدين باسمه الى وزير المأمون الحسن بن سهل ، الذي اهداه اليه . وكان اقدم المجموعة . واما قصر التاج الذي شرع بتشيدته المعتمد ، فقد واصل العمل فيه المكتفي الذي بنى كذلك مسجد القصر ، وكان موقعه كموقع الخزانة على شاطئ دجلة ، اكثر بعدا عن مهبط المدينة . واما قصر الفردوس ، فهو اثنى لان قاصديه ينفذون من قصر الفردوس الى مسجد القصر الذي بوسعنا ان نقرر موقعه اعتمادا على الانتقال الباقية منه . وهناك قصر آخر هو دار الثريا ، وكان يقع بعيدا الى وراء ، لانه كان على مسافة ميلين بعدا عن قصر التاج وقصر الخزانة ، وكان يشتمل على حديقة حيوانات وغابة صيد (حير الوحوش) ولا ريب انه صيغ على مثال حديقة الحيوان الفارسية الفردوس . وقد اهتم الخليفة المقتدر بحير الوحوش اهتماما خاصا . وبين قصور ضفاف

دجلة ودور الثريا تقع الحلبة التي كانت ساحة للعبة الكرة والصولجان .

في قصور الخلفاء هذه اظهر المهندسون والفنانون والصناع البغداديون كل ما اوتوه من مهارة وابداع ونبوغ ، ارضاء لنزوات الخلفاء ، فاعطوا الزوار المسلمين والاجانب انطبعا عن ثروة وترف لا ضريب لهما ومنافسة للقصر العظيم الكائن في القسطنطينية الذي كان يعرفه سفراء الخلفاء معرفة جيدة . وان الشجرة المصنوعة لقصر الشجرة لتبدو بجلاء محاكاة لمثال بيزنطي . كان القصر عبارة عن مناهة من الابواب والدهاليز والممرات والساحات وقاعات الاستقبال او قاعات عرض التحف الفنية ونماذج السلاح الفريدة المجموعة هناك من عهد البناء ، مع غزارة في الطنافس والسجاجيد المينة . وكانت خدمة الخليفة والعناية بحريمه وكذلك الحفاظ على القصر تستوجب توفر خدم كثيرين وحجاب عديدين ووصفاء ووصائف لا يحصون وخصيان كان عددهم بلغ ٧٠٠٠ خصي في زمان المقتدر (٤٠٠٠ من البيض و ٣٠٠٠ من السود) وطبقا لبعض التقديرات بلغ تعدادهم ١٥٠٠٠ نسمة ، وبلاضافة الى هذا كان ثمة ٤٠٠٠ غلام اسود .

كانت هذه القصور الخليفة مسرحا لاحداث بارزة في الحياة السياسية . واهم هذه الاحداث استقبال السفراء البيزنطيين عام ٣٠٥ / ٩١٧ ، ذلك الاستقبال الذي ترك انطبعا قويا في نفوس الذين حضروه ، وكشاهد على ذلك عدد القصص المنسوبة الى شهود عيان المودعة في تاريخ بغداد للخطيب البغدادى . ففيه جرى تعداد كل اجزاء قصر التاج وقصر الفردوس حيث طاف السفراء ، كما دونت اوصاف تلك القصور ومرافقها . وقد وقعت فيها حوادث دامية كذلك . ففي قصر الخزانة تواجد جعفر (المقتدر) عائدا من ميدان سباق الخيل بعد ان افلت بقدرة قادر من محاولة اغتيال حياته التي دبرها المتآمرون من انصار ابن المعتز . وفي قصر التاج حوشر القاهر عام ٣١٧ / ٩٢٩ ، وكان المدافع الرئيسي عنه ابو الهيجاء الحمداني الذي بذل كل ما في وسعه للأخذ بيده واخراجه عن طريق قصر الفردوس ، ولكن المنافذ جميعها كانت قد سدت ، فاضطر للتراجع الى وراء فقتل في دار الترجمة ، في حين كان القاهر قابعا في السجن .

ونهب مكنونات قصر الثريا عام ٣١٥ / ٩٢٧ من قبل فرسان الحرس المتمردين الذين نحسروا حيوانات دار الحير ، ولم يوفروا حتى ابقوا

الفلاحين المجاورين . وفي حلبة الصيد التابعة لهذا القصر ، كاد الرازي يغدو ضحية محاولة لقتله عام ٢٢٦ / ٩٣٢ - ٨ . ولم تعف حتى القصور الخليفة في الحروب التي كانت بغداد مسرحا لها اثناء حكم امراء الامراء . وفي عام ٣٣٠ / ٩٤١ - ٢ نهبت قوات البريدي قصر الخليفة المتقي وكان قد غادر بغداد مع ابن رائق . وخلال اعتقال المستكفي وخلعه عن العرش على يد معز الدولة ، اخترق الديلم من اتباع الامير مقاصير حرم الخليفة واعتقلوا القهرمان التي كانت قد تأمرت على سيدهم .

وكان القصر الوزيري بمختلف دوائره ومكاتبه خلال شطر من القرن العاشر هو القصر القديم لسليمان بن وهب الواقع على مصراة الصخر ، قريبا من باب المخرم . وقد اشتهر هذا القصر بوزراء من امثال ابن الفرات وعلي بن عيسى . ولكن هذا القصر بيع عام ٢٢١ / ٩٢٣ من قبل الخليفة القاهر . وفي دار سليمان بن وهب طبخت مؤامرة ابن المعتز . وعلى وجه التحقيق كان هذا القصر بالغ الترف مكيفا للابية ، ذلك لان السفراء البيزنطيين ادخلوا في مرافقه قبل ان يحظوا بالمثل بين يدي الخليفة . فظنوا انهم في بلاط الخليفة نفسه .

وقد لعبت قصور اخرى دورها في تاريخ بغداد في تلك الحقبة ، كمقام علي بن عيسى الخاص الواقع قرب بستان الزاهر ، في اعلى المخرم ، وكصر ابن مقله . وكان موقع قصر ابن الفرات في سوق العطاش في نفس المنطقة . وبين قصور الخلفاء وسوق الثلاثاء يربض قصر مؤنس قائد الجيش الاعلى في زمن المقتدر ، وموضعه معروف . اذ على جانب هذا القصر شيدت المدرسة النظامية . وكان هذا القصر محل اقامة امراء الامراء المتعاقبين: ابن رائق وبجكم وتوزون والبريدي ، حاشا ناصر الدولة الذي اقام دائما على الجانب الايسر في باب خراسان . وفي قصر مؤنس اقام كذلك معز الدولة البويهني بادى الامر . وكما سئرى صارت قصور الوزراء عدة مرات هدفا لمهاجمات المتمردين من عسكريين ومن اوساط شيعية . اما الجانب الايمن في زمان موضوع بحثنا ، فرغم انه لم يهجر ، لم تكن اهميته كاهمية الجانب الايسر ، وهو يشتمل على احياء شعبية تعج بالحيوية ، كمحلي الكرب وباب البصرة ، الخ . وعلى الضد فان مدينة المنصور المدورة مهدمة ، ولكن مسجدتها قائم . لقد دمرت الاسوار جزئيا ، ولكن مواقعها ظلت مملوكة للدولة؛ فشيدت عليها منازل . وحسبما يقول التنوخي ان وزيرا للمقتدر استفاد منها بفرض « ضريبة الموقع » على كل بيت جديد يقام في تلك البقعة (نشوار

المحاضرة ، ج ١ ، ص ٧٥) . وعلى الجانب الايمن وجدت كذلك قصور تعود للخلفاء . ففي الشمال الغربي من ذلك الموقع كان موقع القصر القديم للطاهريين وكذلك موقع قصر آخر في الزبيدية (اقطاعية زبيدة) . وكان الخلفاء يقيمون هناك احيانا بصورة مؤقتة ، فجعفر المقتدر بن المعتضد سكن في قصر الطاهريين ، وهناك بحث عنه الباحثون لتنصيبه على العرش . وفي الجانب الايمن من الجنوب الغربي من المدينة كانت حديقة تدعى النجمي . واستعمل السهل الممتد اسفل النجمي معسكرا لقوات البريدي عام ٣٢٩ / ٩٤١ ولعقد الدولة عام ٣٦٨ / ٩٧٩ لدى عودته من غزو الجزيرة وهناك اقام الامير بجكم عام ٣٢٧ / ٩٣٩ مأدبة عظيمة احتفالا بالعيد الفارسي (السدق) du Sadaq حيث كانت توقد النيران المتكاثفة ، كما اقيم مستودع كبير للمياه .

وظل الجانب الايسر مركزا للحكومة في عهد البويهيين . ومعز الدولة الذي اقام بادى الامر في قصر مؤنس اشاد عام ٣٥٠ / ٩٦١ مجموعة قصور في باب الشماسية مع ميدان لباق الخيل وحدائق . وانفق على ذلك مبالغ طائلة وجعل لقصره ابوابا من حديد المدينة المدورة (١) . ثم بنى عقد الدولة في اعلى المخرم - في موضع سكنه سبكتكين حاجب معز الدولة الذي لم يحتفظ الا بجزء طفيف منه - قصرا شامخا ذا ابواب خارجية مشمخرة وقياب ابوابها الغربية تفتح على دجلة ، ويضم دار العامة وقاعة الاستقبال العامة وقاعة اجتماع الوزراء ، ومكاتب الوزراء ومنشآت للحرس . وهذه المجموعة حملت اسم دار الملكة ، قصر الحكومة ، معارضة لدار الخلافة ، القصور الخليفة (٢) .

وقد رفع بهاء الدولة لنفسه قصرا في سوق الثلاثاء قوض لبنائه اركان قصر معز الدولة الذي تم تقضه نهائيا عام ٤١٨ / ١٠٢٧ - ٨ . ومثلهم مثل وزراء الخلفاء القدامى ، كان للوزراء الجدد قصور فخمة ، كقصر المهلبى الذي لعله كان واقعا في المخرم وقد عرف باسم دار البركة ، وقد ذكره التنوخي (٣) وكقصر دار الخاقان الذي كان يقع على الساحل الايمن حيث ملتقى نهر الصراة بنهر دجلة .

- (١) انظر الصولي ، اخبار الرازي والمتقي ، الترجمة ، ج ١ ، ص ١٩٨ .
- (٢) ابن الاثير ، مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، نشوار المعاصرة ، ج ١ ، ص ٧٠ - ٧١ .
- (٣) الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

وقد اقام مهرجانا عظيما فيه على شرف معز الدولة (٤) . وفي قصر الخليفة استمرت مراسيم تنصيب أمير الأمراء ، حسب التقاليد المرعية : خلع ثياب تشریف (سبعة أثواب أحيانا) وقلاند واساور وراية ومنح كنية ولقب (٥) .

وفيما عدا مراسيم التقليد هذه وكل ما يتصل بالسلطات القانونية الدينية التي تخص الخليفة ومراسلاته ، كانت الوزارة الخليفة تعنى بإدارة الممتلكات الشخصية للخليفة .

وفي أثناء القرن العاشر عانت الحياة السياسية ما عانت من الآلام ، لشق الجيش عصا الطاعة بقيادة زعمائه الذين استخدموه لارضاء طموحهم الشخصي ، فحدثت حوادث عصيان عسكرية اثارها الاستياء الذي كان يعقب هذا الاجراء او ذاك للسلطة او تاخر منح اعطيات الجند او عدم كفاية الموجود منها ، نتيجة للمنافسات القائمة بين عنصرى الجيش ، الاتراك والديلم ، وكذلك نتيجة للحركات الشعبية المسببة عن غلاء الحياة او التناحرات الدينية ، او مجرد الرغبة في النهب . وسنتناول هذا المسور بالتعداد في الصفحات التالية .

الحياة الدينية :

كانت الصلاة في بغداد تقام في اربعة مساجد جامعة ، على الجانب الايمن ، جامع المنصور في المدينة المدورة ، جامع براءنا ، الذي ربما كان في مشهد المنطقة الحالي ، ومعنى ذلك بين المدينة المدورة ودجلة ، وعلى الجانب الايسر ، جامع الرصافة وجامع القصر . وفي نهاية القرن العاشر ، اضيف الى هذه الجوامع جامعان ، على الجانب الايمن ، جامع حي الحربية وجامع قطيعة زبيدة أم جعفر (٦) . وكانت للجوامع الاخرى بعض الاهمية ، كجامع الشرقية الذي كان في الكرخ (٧) .

كانت الحياة الدينية في معظم الحالات مضطربة تسودها القلاقل ، وذلك بسبب الوشائج الوثيقة بين السياسة والدين ، فمن جهة كان الاسلام الرسمي لا يقوى على تحمل السهام التي توجهه الى القاعدة مهددة وحدة الامة الاسلامية دون رد

(١) نشوار الحاضرة .

(٥) الحصري ، ذيل زهر الاداب ١٧٦ . راجع الصولي ، اخبار الراعي والمتقي ، الترجمة ، ج ١ ، ص ١٧ ، ج ٢ ، ص ٥٦ (لبجكم وناصر الدولة) ، ومسكويه ، ج ٢ ، ص ٨٥ (لغز الدولة) ، واما شجاع ، ص ٨٢ (لعمصام الدولة ، خليفة عماد الدولة) .

(٦) نشوار الحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٧) الحصري ، ذيل زهر الاداب ، ص ٢٧٦ .

فعل من جانبه ، ومن الجهة الاخرى كان ينازل الالحاد والزندقة ، وكان السكان منقسمين الى احزاب سياسية لا تنفك عن مناوأة بعضها بعضا : والتجابه بين السنة والشيعة ، وهو قديم ، اصبح اشد حدة خلال هذا القرن واتخذ اهمية اكبر بمجيء البويهيين الى الحكم ، وكانوا شيعة موطنهم الاصلي الديلم الذي مال الى الاسلام بتأثير العلويين .

وفي صراع السلطة مع الزنادقة والملاحدين كان الحادث الاهم هو محاكمة الحلاج الصوفي ، فان معتقداته واتحاد النفس الفردية مع الجوهر الالهي ، واندماج شخص الصوفي في الوجد على الحقيقة (انا الحق) ونظرية الالتزامات الشرعية ، حتى الحج ، كانت قابلة للاستبدال ، كل هذا كان مسا لا يتلاءم مع العقائد الثابتة . ومن جهة اخرى فان وعظه قد اثر في بعض الاوساط القريبة من البلاط كنصر حاجب المقتدر وقائد جيش الخليفة حين بن حمدان . كما ان ام الخليفة المتتدر شغف كانت معنية به . اتهم بممارسات دجل وشعبذة واستندت اليه جريرة قوله انا الله ، فاعتقل وسجن واستجوب مطولا ، ثم بعد فتوى القاضي المالكي ابي عمرو ، بناء على طلب الوزير ابي حامد بن العباس . حكم عليه بالاعدام . وقد نفذ فيه الحكم بعد ان جلد وقطعت اوصاله ، وذلك في ساحة تقع امام سجن الجانب الايمن ، مقابل باب الطاق ، بحضور جمهرة كبيرة من الناس ، وعلقت جثته على المصلب في السادس والعشرين من آذار عام ٩٢٢ . وكانت هناك محاكمات اقل اهمية . ففي ٣٢٢ / ٩٢٤ ، اتهم كاتبان هما ابراهيم بن ابي عون ومحمد بن علي الشلمغاني المعروف باسم ابي القراقر ، بانهما يمارسان اعمالا لا اخلاقية وعقائد زندقية (تجسيد الروح الالهي) ، فجلدا وقطع راساهما وعلقا على المصلب . وقد زعم الاول والثاني ان الالهية قد تقمصت في شخصيهما ونظر اليهما مريدوهما نظرتهم الى الاله . وقد ذكرت قضيتهم بقضية الحلاج ، وهذه الواقعة مذكورة بصورة صريحة في رسالة ارسلها الخليفة الراضي الى نصر الساماني مخبرا اياه باعدامهما . وهناك حادث آخر ، هو حادث ابن شنبوذ ، قارئ القرآن المتهم بقراءات غير مشروعة . وقد مثل امام ابن مقلة فضرب بالعصي حتى اضطر الى التراجع (٨) .

(٨) راجع كتاب الارشاد لياقوت حول ابن ابي عمون والشلمغاني ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ وانظر حول ابن شنبوذ الصولي ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، ١٢٥ ، ٢١٢ . وقد مات في السجن .

والحوادث التي طبعت الحياة في بغداد في القرن العاشر بطابعها الخاص هي على وجه الخصوص الحوادث التي استأثرت بها المطاحن بين السنة والشيعية. وكان في المدينة موطنان رئيسيان للشيعية هما باب الطاق في الجانب الايسر والكرخ في الجانب الايمن. وكانوا يجلسون بصورة خاصة جامع برائنا بسبب اقامة الامام علي في هذا المكان عندما انطلق لمحاربة الحروريين، وكانوا يدفنون موتاهم في مقبرة هذا الجامع. ولكن العاصمة كانت كذلك قلعة للمذهب الحنيلي، الذي كان ممثله الاصخب، في الشطر الاول من القرن العاشر البرهاري المتوفى عام ٢٢٩ / ٩٤١. وكان يمارس نفوذا على الاهالي السنيين، ولا سيما الطبقات السفلى من السكان. والحنابلة بوصفهم اعداء الالحاد الالقاء واعداء كل الممارسات المعتبرة بدعا مكروهة اظهروا ضد كل ما عدوه انتهاكا لحرمان السنة والاخلاق العامة كل مقاومة (كالخمر والقيان ووجود اية امرأة او اي غلام بجانب رجل في الشارع والمناجح الجنائزية، الا ما سمحت به الشريعة). كما وقفوا ضد المراسيم الشيعية وضد الشيعة انفسهم وامكن اجتماعاتهم. وكانت السلطة تتخذ طورا قرارات تجري في نفس الاتجاهات التي تجري فيها الاتجاهات الحنيلية وتارة تمضي في سبل متعارضة معها. وعلى هذا المنوال فان المقتدر امر عام ٢١٢ / ٩٢٥ بتخريب جامع برائنا، لان الناس كانوا يلعبون فيه صحابة الرسول. وعلى العكس في عام ٢٢١ / ٩٢٣ اصدر علي بن ابي طالب حاجب القاهرة امره بان يلعب معاوية في الجوامع وكذلك يزيد، ولدى استنكار العامة قرر القبض على البرهاري. الذي افلح في الهرب في حين كان عدة من اصحابه منفيين في عمان. صحيح ان ابن ابي طالب قد اعتقل واعدم بعد ذلك بفترة قصيرة. وان القاهرة اتخذت اجراءات تتفق مع ميول المذهب الحنيلي فحرم الخمر والفناء وامر ببيع القيان بالقوة. ولكن يقال انه كان يهدف الى شراء القيان بأثمان زهيدة لارضاء شيوخه الخاصة.

ومع ذلك فان الفظائع التي ارتكبت من قبل انصار البرهاري كانت بالغة الشناعة بحيث ان الرازي كان مجبرا عام ٢٢٣ / ٩٣٥ على اصدار مرسوم ضدهم. صاروا يكسبون دور القواد والعامة: فان وجدوا نبذا اراقوه، وان وجدوا مفنية ضربوها وكسروا آلة الفناء. وصاروا يعترضون في البيع والشراء. وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان، فاذا راوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو. فاخبرهم. والا ضربوه

وحملوه الى صاحب الشرطة حتى ارهجوا بفداد (٩). وقد حظر عليهم صاحب الشرطة بدر الخراساني التجمع في الدروب والخوض في المجادلات المذهبية، وامرهم ان ينطقوا بالبسملة بصوت عال اثناء الصلاة (١٠). ولكن هذا كان جهدا ضائعا. لقد حضوا الى حد تحريض العميان في المساجد على ضرب الشافعية الذين كانوا يمرون من جانبهم بعصيم.

ولهذه العلة فان الرازي وبخ الحنابلة في مرسومه على نشر المعتقدات المشبهة المجسمة ولعن اخيار المسلمين، واتهام اعضاء الشيعة من عترة الرسول بالكفر، ودعوة المسلمين الى احترام قبر ابن حنبل في حين انهم يمنعون زيارة قبور الائمة، وهددهم بأقصى العقوبات، كالجلد والنفي والموت وحرقت دورهم اذا لم يكفوا عن اعمالهم.

وفي عام ٢٢٦ / ٩٣٨ نفذ حكم الاعدام في حنيلي ادين باحداث القلاقل وكان قد فر من السجن فقبض عليه. وفي عام ٢٢٧ / ٩٣٩ شمر صاحب الشرطة عن ساعديه لكسر شوكة الحنابلة الذين ارادوا منع الناس من حضور الاحتفال بعيد ليلة ١٥ شعبان باعتباره بدعة. وقد اضطر البرهاري على الاختفاء، ومات بعد ذلك بقليل. وفي عام ٢٢٨ / ٩٤٠ (عام ٢٢٧ حسب رواية الصولي) اعاد الامير بحكم بناء مسجد برائنا وتوسيعه نزولا على طلب الشيعة. ولكن عند وفاته في السنة التالية تظاهر الحنابلة وهم يصيحون «لقد تطهرت السنة» وحاولوا هدم المسجد، ولكن دون جدوى، فان الخليفة المتقي الذي زين هذا المسجد سابقا، وذلك باقامة منبر فيه يحمل اسم هرون الرشيد وجد في خزانة مسجد المنصور، اصدر اوامره بالقاء القبض على رهط من الحنابلة وحراسة جامع برائنا (١١). ومع ذلك فان المتقي نفسه امر عام ٢٢٢ / ٩٤٣ بالقاء القبض على زعيم شيعة باب الطاق بالرغم من ميلان الامير الحمداني ناصر الدولة اليه، الذي حبس طبقا لرواية الصولي انتشار العقيدة الشيعية في بغداد اثناء امارته (١٢).

ويعتبر تسنم معز الدولة متن السلطة وصول امير ديلمى شيعي بصورة مكشوفة الى الحكم، ومع ذلك فقد تجنب احداث ثورة شيعية باعطاء الخلافة

(٩) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(١٠) الشيعة والمالكية والشافعية ينطقون بالبسملة بصوت جهير، اما الحنابلة فلا.

(١١) انظر الصولي، ج ٢، ص ٢، ١٩؛ الخطيب، ج ١، ص ١٠٩ - ١١٠.

(١٢) انظر الصولي، ج ٢، ص ٦٨، ٧٨ - ٨٦.

الى علوي واحتفظ بعباسي بمثابة دريئة تحاشباً
لخدش مشاعر الاهالي الشيعة في بغداد . ولكنه
استحسن الشيعة ، وكان من احد اسباب خلع
المستكفي عن العرش عام ٢٢٤ / ٩٤٦ ان هذا
الخليفة امر بالقاء القبض على زعيم شيعة باب
الطاق ورفض اطلاق سراحه . وفي عام ٢٤٠ /
٩٥١ - ٢ : سجن الوزير المجلبي عددا لا بأس به من
الناس الذين كانوا يؤمنون بالوهية ابن ابي القراف
وضربهم بالعصى ، ابن ابي القراف الذي جثا على
قصة اعدامه آنفا . كما كانوا يتقاون بتجسيد علي
وفاطمة في شخص رجل وامرأة من بينهم (١٢) .
وقد تشفعوا لدى معز الدولة بشخصية كانت تساند
كونهم من شيعة علي . فعمل الامر على اطلاق
سراحهم . ولم يعارض الوزير لئلا يوص بتسرك
التشييع . ان المشاحنات بين الشيعة والسنة .
التي تفشت في بغداد قبل مجيء البويهيين . اصبح
متصلة الحلقات بعد ذلك . وزاد الطين بلة شعور
الشيعة بانهم مدعومون من قبل السلطة . وكانوا
اترياء بصورة كافية . ففى خلال اضطرابات عام
٢٤٩ / ٩٦٠ شملت الخفتين نعمت اقامة
ملاة الجمعة في الماجد . عدا مجد برائسا .
وقد حامت الشبهات حول هاشميين اتهموا بانهم
كانوا وراء هذه القلاقل فاعتقلوا ولكن اطلق سراحهم
غداة غد . وفي عام ٢٥١ / ٩٦٢ كان الامير نفسه
قد امر بوضع كتابات من الشنائه على جدران
الماجد لاعتة معاوية وابا بكر . الخ . وقد محيت
خلال الليل . فقد حصل الوزير المجلبي من معز
الدولة على وعد بعدم اعادتها ثانية ، على ان تحل
محلها كتابات ارفق منها تلعن من ظلموا آل البيت
فقط ، دون تسميتهم باسمائهم الحقيقية . وخطا
الامير خطوة اخرى في السنة التالية ، وذلك حين
امر بالاحتفال الرسمي السنوي بمصرع الحسين
(عاشوراء : ١٠ محرم) وذلك باقامة تظاهرات
حداد (منائح جنازية . نساء في الدروب شعث
الشعور بمزقن ثيابهن ، اقفال الحوائت ، ارتداء
المسوح ، رايات سوداء تنشر في الاسواق ، الخ .
وسنوية واقعة غدیر خم (في ١٨ ذي الحجة) باقامة
افراح واشغال مصابيح احتفالا بعهد الرسول الى
علي . وهذه الاحتفالات ما لبثت ان اطلقت من
فورها المتاجرات والمصافعات من عقابها بين السنة
والشيعة .

وفي ايام بختيار ٣٦١ / ٩٧٢ ، اثناء
الاضطرابات التي شب ليهيها عقيب تظاهرة شعبية

(١٢) راجع حول لفرة القرافين البغدادي ، الفرق ،
ص ١٢٩ - ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ .

سببها الطلب الى الامير المساهمة في الجهاد المقدس
ضد البيزنطيين ، تحولت القلاقل الى اشتباكات
بين الطائفتين اللتين ساند شطر من الجيش هذه
الفئة وساند الشطر الآخر الفئة الاخرى . ساند
الديلم الشيعة ودعم الاتراك السنة . وخلال دفتين
تحزب الضابط المكلف باعادة النظام ضد الشيعة
فاحرق الكرخ . وفي عام ٣٦٣ / ٩٧٤ سبك
الرعا من السنة دماء الشيعة . مستندين الى دعم
الحاجب سيكتكين قائد الجيش : فلاد هؤلاء
الشيعة بجانب الكرخ الذي احرق بهم . وعلى
العكس اسند الامير بختيار الشيعة . وكتب التريخ
مشحونة بالقصص المروية حول النزاعات التي
نشب بين الكرخ الشيعي وباب البصرة الشيعي .
هذه المشاجرات التي اسهم فيها الرعا والعيار .
على حد سواء . من هذا الجانب او ذاك . في حين
كان الاشراف (ارسقراطية الاسلام) يبدون
قصاراهم : كما في عام ٣٩١ / ١٠٠٠ ، لا يتكاف
طفيان هذه التجاوزات ومن جهة اخرى كان الديلم
والاتراك في تطاحن وفي تدخل لاصلاح ذات البين .
وفي عام ٣٨٤ / ٩٩٤ نلاحظ وقوع المصادمات
والمناوشات بين السنة والشيعة والحرائق المتعاقبة
في عدة احياء وجرائم العيارين المتواصلة . وفي عام
٣٨٩ / ٩٩٨ - ٩ يرد السنة على احتفالات الشيعة
في عاشوراء واحتفال غدیر خم بحفلة تمجيدية
للرسول وابي بكر اذ هما في الفار في الثامن عشر
من رمضان وباحياء ذكرى مقتل مصعب بن الزبير
العدو الالذ للمختار الثقفي الشيعي وذلك في ٢٦
ذي الحجة . وفي عام ٣٩١ / ١٠٠٠ - ١ حدثت
معارك بين غوغاء الكرخ والاتراك الذين يساندهم
السنة . وفي عام ٣٩٣ / ١٠٠٢ - منع حاكم
العراق ابو علي بن استاذ هرمز عميد انجيوش
اهالي باب الطاق وباب الكرخ من الاحتفال
بعاشوراء . وكذلك منع السنة في باب البصرة وباب
الشعير (الجانب الايمن في الشمال الشرقي من باب
البصرة) من الاحتفال بموت مصعب . وفي عام
٣٩٨ / ١٠٠٧ - ٨ ضرب هاشمي من باب البصرة
الفقيه الامامي ابن المعلم في مسجده بالكرخ . وكان
قد حكم عليه بالنفي عام ٣٩٣ من قبل عميد
الجيش ، فثار الشيعة وشتوا فقهاء السنة
(ومن بينهم الشافعي الاسفرائيني) . ففر هؤلاء
الفقهاء .

وله تقطع القلاقل الا بعد عدة اعتقالات
وحبوس ونفي ابن المعلم . ويسجل المؤرخون عام
٤٠٦ / ١٠١٥ - ٦ مصادمات بين اهالي الكرخ
واهالي باب الشعير ونهب سوق القلائين (الجانب

الايمان : فمنعت السلطات تظاهرات الشيعة في عاشوراء . وحدثت معارك جديدة عام ٤٠٨ / ١٠١٧ - ٨ بين السنة والشيعة في الكرخ . وفي عام ٤٢٠ / ١٠٢٩ تفوه خطيب بمباراة متطرفة في جامع براتا . فأرسل الخليفة الى الجامع بخطيب رجمه المصلون فانقطعت الصلاة . فجاء اعيان الكرخ الى الخليفة معذرين وحصلوا منه على الاذن باستئناف اقامة الصلاة والخطبة في جامع براتا .

وفي عام ٤٢٢ / ١٠٣١ اندلعت نيران حرب اهلية حقيقية في بغداد . وكان الخليفة قد سمح للناس بالسفر لاداء الجهاد المقدس واعطاهم راية . فاستعرضوا انفسهم مسلحين في باب الشعر وهم يهتفون هتافات معادية للشيعة . فثار هذا التصرف ثائرة الكرخ وايقظ عين الفتنة فنهبت دور اليهود المتهمين بممالة الشيعة . ثم اجتمع السنة في الجانبين واعانهم العديد من الاثراك فزحفوا على الكرخ واشعلوا النيران في الأسواق . وامتدت الفتنة الى الضفتين ، ذلك لان الخليفة (القائم بأمر الله في ايامه الاولى) كان قد تحزب ضد الشيعة والكرخ ، فأحرقت مجددا أسواق أخرى فاضطرت السلطات الى قطع الجسر . وزاد الطين بلة انتشار العيارين في جميع أرجاء المدينة وانهمكهم بأعمال النهب ليل نهار . وقد دامت القلاقل التي شاعت في شباط حتى تشرين الثاني . وضربت الفوضى اطنابها بحيث أن جماعات من الشيعة قاتل بعضها بعضا وقتله .

يبدو جليا ان السلطات كانت في معظم الاحيان عاجزة أو متواطئة ، فان القلائل كما سنرى كانت كذلك على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي .

الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

كان النشاط الاقتصادي ببغداد في القرن العاشر ما يزال هائلا ، فخلال الشطر الاول من هذا القرن ساهم ترف بلاط المقتدر ومجتمع الطبقة العليا في ديمومة هذا الانتعاش ، كما ساهم بلخ وزراء معز الدولة وفعالية معز الدولة في هذا المجال ، ولكن القلاقل في عهود أمراء الأمراء السابقين على معز الدولة أوقعت ضربة مميتة على رأس رخاء المدينة وبلهيتها . وبعد معز الدولة كان عهد بختيار على وجه التأكيد ضئيل الجدوى على الحياة الاقتصادية . وقد أعاد عهد الدولة البجوحية لحقبة قصيرة ، ولكن نهاية فترة الحكم البويهية كانت بلا شك نهاية مكرثة إذ نقص مجموع المساحة المسكونة كما نقص السكان .

كان لبغداد سوقان رئيسيان . سوق الكرخ على الجانب الايمن وسوق الثلاثاء على الجانب الايسر عدا الأسواق الأخرى على عدوتي النهر . وكانت الملاحة نشيطة في دجلة وفي نهر عيسى ونهر الصرافة (بالنسبة للآخر تنقل منه البضائع واليه انطلاقا من موضع المحول بسبب ضيق القناة) وهي مرتبطة بنهر الفرات . وكانت هناك ثلاثة جسور تسهل المواصلات بين الضفة اليسرى والضفة اليمنى : الاول بمواجهة باب الطاق والثاني أسفل منه والثالث مقابل سوق الثلاثاء ، على الأقل ابتداء من عام ٣٨٣ / ٩٩٣ . كما يروي الخطيب البغدادي . إذ لم يكن الجسر الثالث موجودا قبل ذلك .

وكانت الصناعة الرئيسية هي صناعة النسيج ، ومنسوجات بغداد الحريرية والقطنية المترفة مستوردة بصورة خاصة ، كذلك كان يصنع في بغداد القلاطون (نسيج حريري مقصب بالذهب) ، والملمح (نسيج سداه فقط من الحرير لا لحمه) والعتابي (نسيج حريري أو قطني يعمل في الحي المسمى حي العتابين) والعمائم غالية الثمن . وكانت هناك أيضا منتوجات أخرى تصدر من بغداد ينورنا عنها الجغرافي المقدسي أو المؤلف الفارسي المجهول لحدود العالم . وكانت ببغداد تستورد من الموصل (القمح والدقيق) ومن البصرة (التمور ومنتجات الشرق) وكانت هذه التجارة بالغة الخطورة . وقد سهلت التجارة أوراق الاعتماد التي كانت تستعمل حتى في الأغراض الشخصية الخاصة . وهكذا فان الأمير الحمداني سيف الدولة كان قد نزل في بغداد في دار الفتيان ، فترك عنده قفوله عنها صكا بألف دينار على مصرف صرف لحامله المبلغ لدى الاطلاع . .

ولكن العبث بالاموال العامة والاهمال الاداري ولجوء السلطة الى اجراءات المصادرة والغرامات والرسوم الفادحة الجائرة واساءة استعمال السلطة من قبل الموظفين في أعلى السلم الاداري وأدنياه والاخلال بالأمن نتيجة للحروب الأهلية وأعمال العصيان الشعبية والعسكرية وجرائم الفوضى والعيارين ، هذه البليات كلها لا يمكن أن تؤدي الا الى تأثير كارثي مفاجئ ، ويجب أن نضيف الى ذلك الجوائح الطبيعية كالفيضانات (٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٦٧ - ٣٧٠ - ٤٠١) والحرائق العارضة (٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٢ في الكرخ ، ٣٤١ في سوق الثلاثاء - للاطلاع على الحرائق كنتيجة لأعمال العصيان أنظر أبعد .) وكالطواعين (٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٤٢٣) وكفزوات الجراد (٣٤٢) . كل هذه الوقائع كانت عاقبتها ارتفاع الاسعار والبؤس أو الجوع

ونزوح قبيل من السكان ، لاسيما في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر .

ان ذكر الاضطرابات واعمال العصيان والقتال المختلفة جرى بحثه في ثنايا تاريخ ابن الاثير ، عدا الحالات الخطيرة الخاصة في باب « ذكر عدة حوادث » . والنتائج مرعبة . وسنرسم لها لوحة صغيرة معززة بالتواريخ التي تيسر مشقة الرجوع الى المؤرخين ، حمزة الاصفهاني . الصولي . ابن مكويه ، ابي الهلال الصابي ، ابن الجوزي . ابن الاثير .

٢٩٩ نهب دار ابن الفرات اثر تنحيته .

٣٠٣ اعتصاب عسكري ، مهاجمة دار علي بن عيسى .

٣٠٦ تظاهرات الهاشميين ضد تآخر دفع مخصصاتهم ومناهضة للوزير علي بن عيسى . عصيان عسكري .

٣٠٧ فتنة عنيفة . شعبية وعسكرية في آن واحد . اجع نارها ارتفاع الاسعار في عهد الوزير حامد بن العباس الذي هوجم مقره . دامت ثلاثة ايام : نهب الحوانيت . تحطيم المناير . تعطيل الصلاة . حرق الجسور . فتح السجون . نهب دار الشرطة . وبعد قمع مارد امر الخليفة بفتح الدكاكين العائدة للوزير والسيدة الام والامراء وبيع الحنطة والشعر بأسعار متهاودة ، واثاء القمع اقتحمت القوات العسكرية على خيولها جامع الجانب الايمن وقتلت من قتلت .

٣١٢ عصيان الخيالة لتأخر اعطياتهم . وهيجان شعبي مبعثه الجوع وارتفاع الاسعار .

٣١٥ عصيان عسكري .

٣١٨ كذلك .

٣١٩ كذلك من عام ٣٠٨ الى عام ٣٢٠ بعد حمزة الاصفهاني ١٨ عصيانا او فتنة .

٣٢٠ تظاهرات الهاشميين المطالبين باعطياتهم .

٣٢٣ تظاهرات الهاشميين الذين عطلوا صلاة الجمعة في بغداد الغربية .

٣٢٤ أزمة اقتصادية . جباية الضرائب مقدما . مظاهرات الهاشميين في بغداد الغربية والشرقية . هياج الشعب في مجدالرصافة بسبب غلاء الاقوات . العساكر تطالب بمرتباتها وتنهب دار الوزير ابن مقله .

٣٢٦ حرق دار بجكم من قبل قوات ابن رائق .

الفوغاء تشرق الملابس في الحمامات وتبهر موكبا جنائزيا . الاسعار ترتفع .

٣٢٩ ابتزازات احد نواب بجكم تحمل عددا من الاغنياء التجار على الفرار من بغداد . مظالم ديلم الامير كورنكيح التي شكها منب الصولي مر الشكوى لنائب منزله . يتظاخر السكان بعنف ضد الديلم في جامع النضر ويذبحونهم اثناء فرارهم لدى وصول ابن رائق .

٣٣٠ ارتفاع سعر الطحين : اسباب يوجهه ابي الامير الحمداني في الموصل لارسال نائبه ابن الدقيق .

٣٣١ اماره ناصر الدولة الحمداني . ارتفاع الاسعار . جوع . طاعون . الناس يتلون الجراد . لا يستطيع دفن الموتى لكثرة الجراد . يزداد عدد اللصوص . كثرة من الناس تبيع المدينة . بعد سفر ناصر الدولة يهاجم الاثافي الجنود الذين يصادرون الطحين . ترتفع الاسعار . الشقي ابن حمدي ينهب السفن التي تمخر في دجلة . يلقى القبض على افراد عصابة ابن حمدي ويشنقون . ترتفع اسعار الفواكه في بغداد نتيجة اعمال سرقة في الطرقات .

٣٣٢ خروج الاغنياء اليهود والزرادشتيين اثناء اماره توزون . ابن شيرزاد كاتب توزون يعقد ميثاقا مع ابن حمدي يؤمنه على عدم معاقبته على سرقاته لقاء تسليم ١٥٠٠٠ دينار شهريا للخزينة . ومع ذلك لم يشفع له هذا الميثاق لانه اعتقل بعدئذ وقتل . حرق الكرخ بعد نهبه .

٣٣٣ يضع عصابات للقرقات حصة التنظيم نقيب فسادا في بغداد الشرقية فتهاجمها هجوما مسلحا وتمارس اعمال السمرة وتحيا حياة انحلال . وثمة جماعة اخرى من السامرة والوسطاء كان مقر قيادتها في الحي المسبح من دار الروم ، كانت كما يقول الصولي (ج ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ - ١١٧) تتمر بأمر الجائليق . يشر ارتفاع الاسعار تظاهرة عنيفة في مسجد بغداد الشرقي .

٣٣٤ تحمل المصادرات الثقيلة والضرائب الفادحة اثناء اماره ابن شيرزاد تجار بغداد على تركها . هجمات عديدة للصوم . ارتفاع الاسعار والمضايقات التي سببت عرقلة التمويل بسبب الحرب بين ناصر الدولة ومعز

الدولة تخلق جماعة مريعة في بغداد يضطرب الناس معها لاكل كلابهم وقططيم وحبس خروب الشوك (١٤) الذي أحدث تلبكات واضطرابات في الامعاء : حالات اكل لحوم البشر . بيع البيوت والممتلكات الاخرى برغيف . لا استطاع دفن الموتى جميعهم . الكلاب ترعى في الجثث . هروب فريق من الناس الى البصرة فيموتون من الوباء لدى وصولهم اليها .

٣٤٨ معارك ضاربة في صفوف الرعاع تبعها حرائق .

٣٤٩ ومايليا . اضطرابات مبعثها الصراع بين السنة والشيعة (انظر الى ماسلف) .

٣٥٦ تظاهرات الاثراك والديلة المنحافين للمطالبة بزيادة مرتباتهم . مشادة بين الرئيس التركي سبكتكين وبختيار .

٣٥٨ مرسوم يثبت بالقوة الجابرة الاسعار لمكافحة غلاء المعيشة . هذا الاجراء لم يجد الا في تفاقه البؤس . فيسحب المرسوم . نزوح السكان الى الموصل وسوريا وخراسان .

٣٦١ ومايليا . معارك بين الشيعة والسنة (انظر الى ما تقدم) . تمرد عسكري .

٣٦٢ عصيان الديلم إثر اعدام احدهم .

٣٦٣ عتب منازعات ومشاحنات بين سبكتكين وبختيار يبعث الخليفة المطيع مع وزيره ابن باتيا مشرود الفرار من بغداد . يعيده اليها سبكتكين بالقوة .

٣٧٢ ومايليا . نزاع بين اولاد عشيرة الدولة (مصام الدولة وشرف الدولة وبياء الدولة) يتدخل فيه الترامطة .

٣٧٢ جوع في العراق وبغداد . موتى كثيرون .

٣٧٥ يفرض مصمام الدولة ضريبة العشر على المنوجات الحربية والقطنية . يعقد اجتماع للاحتجاج في مسجد المنصور . تمرد عسكري .

٣٧٦ غلاء الاقوات الفاحش في العراق بأسره ونزوح السكان . نزاع بين الاثراك والديلم في بغداد .

٣٨١ عصيان الديلمي . تعطيل الخطبة . قلاقل في صفوف العامة وحرائق في احياء متعددة .

(١٠) انظر قويميس المنصوري ، رقم ١٢٢٣ . يدعى كذلك (خروبا نباتيا) .

٣٨٢ تمرد الديلم ضد بهاء الدولة . نهب قصر الوزير ابي نصر سابور . ارتفاع الاسعار : رطل من الخبز يباع بأربعين درهما . هيجان في الكرخ يجمع بهمجية ووحشية .

٣٨٣ ارتفاع سعر الطحين وسعر الحنطة ارتفاعا مذهلا في العراق كله .

٣٨٩ غب فرض الوزير فريضة عشرية على منوجات الحرير والقطن ، ثار سكان حي العتابية وحي باب الشام واشعلوا النار في بناية ادارية . اعتبر الرعاع مسؤولين . اعتقل اربعة منهم واعدموا .

٣٩٢ اعمال عصيان جديدة وسلب ونهب يرتكبها العيارون : نهب كنائس واحرقوا . ارتفاع الاسعار وتفاقم التعاسة . اقفار الاسواق من الناس والبضائع . المدينة يهجروها السكان . يعقل عيارون علويون وعباسيون ولصوص اثراك ويفرقون في دجلة .

٣٩٧ تمردات مدنية وعسكرية ولدها غلاء المعيشة .

٤٠٨ المدينة يهجروها الديلم تحت ضغط الشعب . جرائم العيارين .

٤١٦ جرائم العيارين . اعمال قتل ونهب . حرق الكرخ . ارتفاع الاسعار .

٤١٧ الاثراك مادة المدينة يصادرون الممتلكات وينتزعون مائة الف دينار من الكرخ . العيارون يحلون حلدهم . الجيش يحرق الكرخ ويسرق منه مبالغ جسيمة . افلاس اشراف الناس .

٤١٩ عصيان الاثراك ونهبهم دار الوزير .

٤٢١ لصوص اكراد يرقون خيول الاثراك في بغداد . جلال الدولة الامير البويهني يضع خيوله في منجى من السرقة في دار الملكة .

٤٢٢ اشراك العيارين في المطاحات الجارية بين السنة والشيعة .

٤٢٤ يقدو العيارون اقوياء الى درجة انهم ارغموا قائدا عسكريا على مبادلة اربعة من رجاله واعتقلوهم بأربعة من رجالهم كان اعتقالهم القائد .

٤٢٥ لحماية السكان من غوائل العيارين يكلف الرئيس التركي بالسهر على النظام في بغداد الغربية . اعتقال رئيس العيارين الشهير

بالبرجمي واعدامه ، وكان انصاره قد ارغموا الخطيب على ذكر اسمه في الخطبة ، كما لو كان اميرا حقيقيا ، وكان يتميز بخصال الفرسان .

٤٢٦ عجز الجيش عن منع سرقات الاكراد وانتهاكات العيارين .

٤٢٧ الاتراك يكرهون جلال الدولة على الفرار من بغداد .

دامت هذه الاضطرابات حتى نهاية الاسرة البويهية وقدم السلاجقة .

تجاه كل هذا ماذا بمقدورنا ان ندون من معاولمات يقينية لصالح عمل الحكومة ؟ شيئا قليلا في الجانب الايجابي لوزير المقتدر علي بن عيسى . لقد اصطدمت سياسته الاقتصادية بجمهرة من الظروف العسيرة . كانت القضية الملحة قضية اقامة مستشفيات في بغداد ، فأسس مستشفى في حي الحربية عام ٣٠٢ وفتح مستشفين آخرين عام ٣٠٦ ، بيمارستان السيد الام وبيمارستان المقتدر ، مع تنظيم شؤون الصحة العامة والاهتمام بمتطلباتها بصورة تصلح لان تكون امثولات حسنة في تلك الحقبة . وكان امراء الامراء الذين تعاقبوا على السلطة مشغوفين بتأمين السلطة والحفاظ عليها والحصول على الاموال . فاذا كانوا قد بذلوا جهودهم لاستتباب النظام في بغداد ولقطع دابر الجرائم فلمصالحهم الخاصة ، اما رخاء السكان فلم يكن يهمهم الا قليلا . لقد اصلح معز الدولة البويهي القنوات وانفق نفقات باهظة على قصره فانتفع الاهالي من هذه الاعمال بعض الانتفاع . واعاد الرفاه الى عهده الاول في بغداد بعض الوقت بانعاشها الى حد يبع عشرين ليبرة من الخبز السمد بدرهم واحد . ولهذا أصبحت له شعبية في بغداد . وكانت حوادث الفتن نزرقة في عهده امارته . ونمر الشعب بالغبطة والابتهاج دون شك لدى رؤيته المشاهد الجديدة التي ادخلها على بغداد ، كمشاهد المصارعات في الميادين العامة التي كانت تتخللها الموسيقى وتكلمها الجوائز . او كمنابر مسابقات الملاحة في دجلة (١٥) . ولكن ينبغي ان

(١٥) ابن الجوزي الذي اورده ميتز ، ٢٨٥ ، رقت مشاعر الشعب فتحس كذلك بجمال المشهد الذي عرض بمناسبة اعياد النوروز الفارسي التي عرفت اعادة بعض الشعبية للديلم . ولما جاء معز الدولة لرؤية الوزير (الشيرازي) ابي الفضل عباس بن الحسين في داره (الواقعة على شاطئ نهر العراء) كان قد مد حبل من

نقول انه افتتح عام ٢٥٠ نظام بيع الوثائق العامة (كمنصب القاضي ووظيفة الحاسب) وذلك رغم انف الخليفة .

كان عهد الدولة اداريا فائرا فائرا للعراق . وكانت المدينة بعد اماره بختيار قد تخربت او كادت تتخرّب . فان هذا بلغ به الامر ان هدم القصور ، كقصر شيراز (١٦) لبيع موادها . فجدد عهد الدولة بناء المنازل ، بل لم يتردد في هدم البيوت المائلة للانهدام ليقبها مرة اخرى احكام بناء واحسن جمالا ، وقد انفق مبالغ هائلة في اعادة بناء المساجد . ومنح الحرس اعطيات بصورة منتظمة . وكذلك فعل مع المؤذنين والائمة والقراء . وامر باعادة زرع الاراضي المخربة . موافقا بذلك على الاستقرار من الخزينة . على ان تعاد اليها ثانية . كما امر ببناء سدود على ضفاف دجلة واعاد بناء البيوت الساحلية . واستأنف اعمار بستان الزاهر على الشاطئ الايسر . وجدد حفر القنوات ومسابر المياه واحكم قواعد الجور وعلى الاحس جسر باب الطاق . كل هذا حدث عام ٣٦٩ / ٩٧٩ . وفي عام ٣٧١ / ٩٨١ مبر بغداد بمستشفى جديد حمل اسمه . وفي عهده اقيمت مراسيم شرب الطبول امام بابه في اوقات الصلاة الثلاثة الرئيسية في اليوم . وهو امتياز لم يحصل عليه معز الدولة من الخليفة المطيع . وقد امر احد خلفائه سلطان الدولة (٤٠٣ - ٤١٢ / ١٠١٢ - ١٠٢٢) بشرب الطبل في اوقات الصلوات الخمس (١٧) . اما خلفاء عهد الدولة البرولون بين فارس والعراق ووزرائهم فانهم لم ينعموا على بغداد بنعمة تذكر . ومع ذلك فان الوزير ابا نصر سابور بن اردشير قد أسس في بغداد عام ٣٨٣ / ٩٩٣ دار العلم التي هي عبارة عن جامعة بمكتبتها العظيمة الموقوفة عليها . وكانت بغداد حتى ذلك الحين ما تزال مركزا لتساقط الثنائي لذلك لم تفقد اهميتها العالية رغم التنازل .

لا نتمالك انفسنا من الاندهاش من كثرة الفن والاضطرابات والمجاعات والفيضات المختلفة التي شقيت بها بغداد خلال القرن العاشر وفي مطلع القرن الحادي عشر . ان غلاء الحياة ، الذي كانت مسؤولية

الصفة الاولى الى الصفة الثانية من دجلة وغطى النهر بالازهار المشدودة بالخيوط . ويقول الحصري في ذيل زهر الآداب ص ٢٧٥ ان زوارق تزدهم فوقها الناس احتشدت فوق النهر . وتتجدون في هذا النص وصف القصر الضخم من السكر المؤلف من اربعة طوابق الذي رفعه الوزير في بستانه .

(١٦) مسكويه ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

(١٧) ابن الاثير ، ص ٣٦٨ و ٤٠٨ ومسكويه ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

عنه الادارة السيئة . كان متحلل الحلقات وهو يشر جزئيا أعمال السرقة والنهب ، ولكن يجب ان نلاحظ مليا في بعض الاوقات تراخيا تاما من جانب السلطة من جهة وتدهورا اخلاقيا مرعبا من الجبهة الاخرى . اننا نرى امامنا مشهد مدينة ماتزال جاشدة بالسكان ولكنها متروكة الى رحمة نزوات الجنود والى سطوات اللصوص والى وثبات المجرمين في مجال تفاقم شر المعاصيات وتفشي السمرة والدعارة ونشاط كل هذه العناصر بصورة مكشوفة . وماذا عسى ان نقول عن العيارين الذين اسرفنا في ذكرهم؟ ان تاريخهم لا يبدأ من هذه الحقبة . لقد رايناهم في العصر الفائت . وكانوا منظمين . يساعدون السلطة احيانا ويقارعونها احيانا . كما استنجد بهم ابن شيراز عام ٢٢٤ (مسكويه . ج ٢ . ص ٩١) ليقرع بهم رأس معز الدولة والدليم . ونحن نميل الى ان نرى فيه شيئا آخر غير كونهم شقاة ولصوصا .

لأنهم كانوا منظمين تنظيما شبه عسكري ومنصاعين للأوامر نبييا ، لان بعض رؤسائهم أمثال ابن حمدي (١٨) أو البرجمي قد أقاموا الدليل على تمسكهم بالروح العسكرية . فأنشروا مهاجمة الاغنياء ولم يتعرضوا للنساء والفقراء . وهذا اتجاه رومانتيكي معروف للغاية في الادب الاوروبي . وقد استطاعوا في بعض الازمنة ان يقفوا سورا بوجه الفوضى الشاملة ، ولكن مهما تكن الاخطاء السياسية التي اسهمت في نشوء هذه الفرق من العيارين فينبغي ان نجزم جزما مادقا ان العيارين كانوا احد الاسباب الرئيسية فيما حاق ببغداد من الرزايا وما نزل بها من تدهور في تلك الحقبة التي نحن بصددها .

(١٨) راجع التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .



مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية

رئيس التحرير

عبد الحميد العلوي

المورد المجلد الثاني حزيران ١٩٧٣ العدد الثاني

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

دار الحرية للطباعة
مطبعة الحكومة - بغداد